العرب
الخميس 2019/10/10
السنة 42 العدد 11493

حتى لو فتكوا بالانتفاضة

إبراهيم الزبيدي
كاتب عراقي

دون كثرة كلام، إن الانتفاضة الشعبية العراقية الأخيرة أفرزت جبهتين متقابلتين، جبهة الشعب العراقي وأصدقائه ومناصريه، وجبهة أعدائه المتحدين على الإثم والعدوان.

وكما بدا واضحا أن أعداء الشعب العراقي، وهم عصبة واحدة، حتى وهم متقاتلون في ما بينهم على المكاسب والمناصب والرواتب، قد استخدموا ويستخدمون كل ما لديهم لوأد الانتفاضة.

فمن جانب يتفنّن الرؤساء والوزراء وأعضاء مجلس القضاء الأعلى والمرجعية في إطلاق ما يخطر على بال، وما لا يخطر، من الوداعة والنعومة والسلاسة والمحبة والعطف على المحتاجين والمظلومين والمحرومين، والإغداق بالوعود بحوار وطني، ومحاسبة الذين أطلقوا الرصاص الحي، ومحاسبة الفاسدين، وتحسين الخدمات، وإقامة المشاريع لإنعاش الاقتصاد ولتشغيل حملة الشهادات العاطلين عن العمل.

أما على الجانب الآخر، وفي نفس الوقت، فإن المجاهدين في الحشد الإيراني وأشقياء الحكومة نازلون إلى الشارع بكل فنون الغدر والقتل والقنص والبطش بالهراوات والعصي والسكاكين والرصاص الحي، مرفقة بتهديدات نارية لا تتوقف باعتقال المتظاهرين، وقتلهم، دفاعا عن الدولة، وعن الدستور، وعن الشرعية، كما يزعمون.

وهم يعلمون بأنهم، لو انتصر الشعب العراقي، لا مكان لهم سوى وراء القضبان أو على خشب المشانق، أو الشوارع التي كانوا يتسكعون فيها في طهران وبيروت وعمان ولندن، فقط لا غير. إنهم يقولون، بمختلف اللغات والكلمات والأساليب، إما نحن وإما الشعب العراقي المنتفض.

لو افترضنا أن الإيرانيين قد تمكنوا، مباشرة، أو بميليشياتهم وقنابلها المسمومة، من إسكات الجماهير، فإن الانتفاضة باقية، بالتظاهرات أو دونها، ثابتة، وساخنة، ولن تتوقف إلا بقتل آخر مواطن عراقي

ولو افترضنا أن الإيرانيين قد تمكّنوا، مباشرة، أو بميليشياتهم وقنابلها المسمومة، من إسكات الجماهير، فإن الانتفاضة باقية، بالتظاهرات أو دونها، ثابتة، وساخنة، ولن تتوقف إلا بقتل آخر مواطن عراقي مسّه أو مسّ ولده أو أخاه أو أخته أو أحد أفراد أسرته شيءٌ من رصاص القناصة والحشد الشعبي وقوات الحكومة، ليُضاف إلى الظلم المتراكم السابق، على امتداد سنين حكم الإيرانيين ووكلائهم، وستبقى الأنظار شاخصة تترقب الفرصة الثانية للانقضاض، من جديد.

فكيف تنتهي الانتفاضة وقد بلغ عدد شهدائها مئة وثلاثين، وجرحاها ستة آلاف، ومعتقليها ومغيّبيها لا يعرف أعدادهم أحد؟

وقد أعلنها المدعو فالح الفياض، مستشار الأمن القومي ورئيس هيئة الحشد الإيراني، صريحة، فقال "إن الحكومة تدافع عن دستور بُني بالدماء والتضحيات".

بعبارة أوضح. إن الذين كانوا جياعا وأذلة ومُعدمين وعطشى إلى مال وجاه وسلطة، ثم أعطاهم الإيرانيون أموال الشعب العراقي كلها، وجعلوا منهم رؤساء ووزراء وقادة وزعماء لن يسمحوا لأي كان باسترجاع ما اكتسبوه بالغدر والغش والاختلاس وبالخيانة والعمالة إلا بالقوة، وبالقوة وحدها.

هذه الحقيقية أكدها المرشد الإيراني علي خامنئي بصراحة كاملة، بتغريدة على حسابه الرسمي على موقع التواصل الاجتماعي، تويتر، بقوله "إن الأعداء يحاولون دق إسفين بين العراق وإيران"، مؤكدا أن "الأعداء يسعون للتفرقة بينهما، لكنهم عجزوا، ولن يكون لمؤامرتهم أثر".

ثم، وبدوره، أعلن قائد الوحدات الخاصة التابعة لقوى الأمن الداخلي الإيراني، العميد حسن كرمي، عن إرسال قوة مكوّنة من 7500 عنصر إلى العراق لحماية "مراسم أربعين الحسين، وهناك 4000 عنصر احتياط".

إن كل هذه التصريحات والوقائع التي تكشف واقع الحال في العراق، تؤكد، وبكل وضوح، أن أي حوار وطني، كالذي دعا إليه برهم صالح وعادل عبدالمهدي ومحمد الحلبوسي ليس له معنى ولا منه فائدة. لأن الأمر كله، من أوله إلى آخره، لوليّ الأمر الوحيد والحقيقي الذي لا يوجد في العراق.

فالرئيس برهم صالح، في كلمة نقلها التلفزيون، يعلّق مسؤولية المذبحة التي أدارها الحشد الشعبي وقوات أمن عادل عبدالمهدي على حفنة قناصين ألقى المتظاهرون القبض على بعضهم وتبيّن أنهم إيرانيون بأوراق رسمية. ويقول إن "المتربصين والمجرمين الذين واجهوا "المتظاهرين" و"القوى الأمنية" بالرصاص الحي هم أعداء هذا الوطن، وهم أعداء الشعب". أما الإيرانيون وجواسيسهم وميليشيات حشدهم فلا علم للرئيس بأي دور لهم في المذبحة. وليته سكت مع الساكتين.

ثم، وكما هو متوقع من حكام إقليم كردستان، وانطلاقا من مصالحهم الخاصة البعيدة عن مصالح أشقائهم عرب العراق، جددوا دعمهم لحكومة عادل عبدالمهدي "لتهدئة الأوضاع في البلاد، ونؤيد خطواته في تجاوز الأزمة الحالية".

حتى إياد علاوي الذي دوّخ العالم بحديثه عن فساد الحكومة وفشل العملية السياسية أعلن، هو الآخر، في بيان مشترك مع مسعود بارزاني عن عدم القبول بأي تغيير في العملية السياسية خارج السياقات والأطر الدستورية والآليات الديمقراطية.

ولم ينسَ أن يتقدّم بالتعازي والمواساة إلى ذوي الضحايا المغدورين في "الأحداث" الأخيرة، ويتمنى "الشفاء العاجل للجرحى والمصابين، طالبا من الحكومة الاهتمام والرعاية التامة بالضحايا والجرحى وتعويض المتضررين".

أما المحزن العجيب الغريب فهو أن موقف المرجعية الدينية في النجف لم يختلف عن مواقف باقي المتحدين ضد الشعب العراقي.

فهي تحذر من "العنف" و"العنف المتبادل"، وتتناسى ما قام به مسلحو ميليشيات الحشد الإيراني من حملات قتل وحرق وتكسير واغتيال، وكأنها لم تعلم بأن أبناءها وأتباعها المتظاهرين لم يكونوا مسلحين إلا بالهتاف والأعلام العراقية وزغاريد النساء، لا يريدون سوى استرجاع حقوقهم ومحاسبة الفاسدين والفاشلين الذين كان لها اليد الطولى في تسليطهم على العباد والبلاد.

يقول جلال الصغير، رئيس المجلس الإسلامي، "إننا سوف ننزل إلى الشارع، بكل قواتنا، لمقاتلة النواصب الوهابية والبعثيين الذين يتظاهرون ضد دولة الحسين".

وكأنه يقول إن شيعة بغداد والحلة والنجف وكربلاء والناصرية والديوانية والسماوة والكوت والبصرة ليسوا هم الطائفة التي يحكم باسمها وبأصوات أبنائها.

هذه هي المسألة إذن. إنهم، جميعَهم، إيرانيين وعراقيين موكّلين من إيران، جاهزون لقتال الشعب العراقي، بكل ما لديهم من قوة، دفاعا عن وجودهم، وبلا حدود.

إنهم يزرعون النهاية لظلمهم، ويمنحون الشعب العراقي القوة والجبروت لمقاتلتهم حتى النصر الأخير. ولن يصح سوى الصحيح.

مشكلة ترامب الحقيقية

علي الصراف
كاتب عراقي

لاحت نهاية الرئيس الأميركي دونالد ترامب في الأفق، أم لا، فإن مشكلته الحقيقية ليست في إجراءات عزله. إنها في الصلف. والصلف لم يبقِ له من يرحمه.

لقد أظهر ترامب مقدارا مبالغا فيه من الوقاحة في التعامل مع كل من يخالفه في الرأي. واستعدى بذلك الكثيرين ممن دعموه وممن عملوا معه وممن كانوا على صلة به، دع عنك من عارضوه.

فريق كبير في وزارة الخارجية الأميركية ينتظر اليوم الذي يرى فيه ظهر هذا الرئيس. ومثلهم في أجهزة الأمن، وفي مقدمتها "السي. آي. إيه".

وبرغم أنه لا يزال يحظى بدعم الجماعات العنصرية والمتطرفين وأقصى اليمين الجمهوري، فقد استعدى، في الشارع، كل الآخرين.

ولا يزال بوسع الكثيرين أن يتذكّروا كيف كان يعامل منافسته الديمقراطية هيلاري كلينتون خلال حملتهما الانتخابية. إذ ظل يتوعدها بالسجن وبإعادة فتح التحقيقات المتعلّقة باستخدامها حسابها الشخصي للإيميل، بدلا من حساب وزارة الخارجية. بينما يجيز لنفسه التخابر مع دولة أجنبية لتحريضها على منافس له.

الصلف كان هو السبب الذي دفع العديد من حلفاء الولايات المتحدة التقليديين إلى النأي بأنفسهم عنه وعن خياراته. وهو نفسه الصلف الذي دفعه إلى أن يلغي التزامات الولايات المتحدة في اتفاقية المناخ عام 2015 والتي وقّعتها 195 دولة، اعترافا منها بالخطر الذي يمثّله التغيّر المناخي على العالم. إلا دونالد ترامب، فقد ظل يعاند كل الحقائق وكل تقديرات العلماء، وكل المتغيّرات الملموسة التي تتجه لتذيب القطب الشمالي برمّته.

ولئن أثر المحقق الخاص روبرت ميلر ألاّ يتشدد في الأدلة التي تثبت تورط ترامب بالتواطؤ مع روسيا لخدمة حملته الانتخابية، فإن التواطؤ المكشوف مع روسيا في مجالات إستراتيجية شتّى، كان واضحا. حيث سمحت سياسات "صنع الفراغ"، في أوكرانيا وسوريا وتركيا، لروسيا بأن تتمدّد فتكسب موطئ قدم بات من الصعب إزالته.

أكثر من ذلك، وبرغم أن القضايا التي أدّت إلى طرد روسيا من "مجموعة الثمانية" لا تزال عالقة، فقد دفع ترامب في اتجاه عودتها إلى هذا النادي الكبير للدول الصناعية الكبرى. حتى ألمانيا التي يهاجمها ترامب لاعتمادها على الغاز الروسي، لم تجرؤ على قبول عودة موسكو إلى ذلك النادي.

سياسات الابتزاز التي اتبعها ترامب مع حلفاء بلاده في الأطلسي، كانت منقلبا آخر من منقلبات الصلف، وكذلك تدخلاته الفظة ذات الدوافع الشخصية في الشؤون الداخلية لهؤلاء الحلفاء، الذين ظل ينظر إليهم باستعلاء وغطرسة شديدين دفعا إلى النفور منه ومن مخاطباته التويترية.

العلاقة المزاجية مع إيران كانت وجها آخر ليس أقل سوءا لطبائع الصلف. فالرجل لم تكن لديه سياسة واضحة حيال تهديدات إيران. وآثر أن يماطلها بالعقوبات، إنما من أجل أن يماطل خصومها في المنطقة لكي يشتروا سلاحا، من دون أن يوفر لهم في المقابل أي شراكة أمنية حقيقية. وأراد أن يُنشئ قوة بحرية لمراقبة حرية الملاحة في الخليج، ولكن ليس لردع إيران، وإنما للتمظهر بالقوة. وفي حين ظلت إيران تمارس أعمالها العدوانية، وتزيد فيها، فقد ظل ترامب يماطل من أجل فتح حوار، لا من أجل إجبارها على الامتثال للقيم والأعراف الدولية. وعندما شنّت إيران عدوانها على منشآت شركة أرامكو، وضع ترامب ذيله بين فخذيه، تاركا لإيران الفراغ الذي يسمح لها بأن تقرر بنفسها وجهة التطورات.

وفي الواقع، فإنّ الكراهية كانت هي الدافع الرئيسي من وراء المماطلة مع إيران. الكراهية ليس لأعمال طهران العدوانية، بل للرئيس باراك أوباما الذي وقّع معها اتفاقا نوويا، كان بمثابة اختراق من ناحية الإرث السياسي. وكل ما أراده ترامب هو أن يوقّع اتفاقا لكي يسجل الاختراق باسمه لا باسم الرئيس السابق الذي ظل يكرهه كره العمى.

السعي إلى إرث شخصي هو الذي دفعه إلى البحث عن اختراق مع جماعات طالبان، ومع كوريا الشمالية. وكانت القصة كلها تتعلق بما يرغب ترامب بأن يلعب به لعبته الخاصة، بقواعده هو، لا بقواعد وأصول الدبلوماسية، ولا حتى بمصالح بلاده الإستراتيجية أو مكانتها في العالم.

بالصلف ذاته واجه التحقيقات التي دفعت الديمقراطيين في الكونغرس إلى فتح التحقيقات من أجل عزله. حتى أنه استخدم لغة أبعد ما تكون عن لغة رئيس.

هناك من موظفيه السابقين في البيت الأبيض، من يقول إنه يقود سلطته بعقلية رجل مافيا، لا باتزان وحصافة رئيس. وهو خلق أجواء من التوتر والمزاجية جعلت تسيير الأعمال، بما فيها أعمال مستشاري الأمن القومي، شيئا مستحيلا.

قد ينجو ترامب من إجراءات العزل عن كبائره إلا أنه لن ينجو مما زرعه الصلف. وما لم يجد من يُصدر عنه عفوا، فقد ينتهي، بالكثير من صغائره الأخرى، إلى السجن فعلا. ليرى العالم حينها، أن أكبر مشكلات ترامب هي ترامب نفسه

ليس من المرجّح أن تنتهي إجراءات العزل في الكونغرس إلى عزله فعلا. فالأمر يحتاج في النهاية إلى ثلثي مجلس الشيوخ الذي يسيطر عليه الجمهوريون أساسا.

رئيسان فقط، في التاريخ الأميركي، واجها إجراءات العزل هما بيل كلينتون عام 1999، في قضية ممارسة الجنس مع موظفة البيت الأبيض مونيكا لوينسكي، والرئيس أندرو جونسون عام 1868 لأنه أقال وزير الدفاع بعد 11 يوما من تعيينه لمجرد أنه اختلف معه.

أما ريتشارد نيكسون، فقد آثر أن يستقيل قبل أن تبدأ إجراءات عزله، بعد اكتشاف أنه سمح بنصب أجهزة تنصت على المكالمات الهاتفية للجنة القومية للحزب الديمقراطي، في ما يسمى فضيحة "ووترغيت"، فبدا رئيسا محترما، مقارنة برئيس يحرّض دولا أجنبية على مرشح ديمقراطي منافس، ويعتبر تصرّفه صحيحا ويعاند فيه.

ترامب أقال وزيرين للدفاع ووزيرين للخارجية وطرد رئيس مكتب التحقيقات الفيدرالي وثلاثة مستشارين للأمن القومي، وعددا آخر من كبار موظفي البيت الأبيض، ولا يزال يتمتع بالصلف الذي يجعله يتهم ضباطا في "السي.آي.إيه"، ومسؤولين كبارا في الكونغرس بأنهم خونة ويستحقون الموت.

وقد ينجو ترامب من إجراءات العزل عن كبائره، إلا أنه لن ينجو مما زرعه الصلف. وما لم يجد من يُصدر عنه عفوا، فقد ينتهي، بالكثير من صغائره الأخرى، إلى السجن فعلا. ليرى العالم كله حينها، أن أكبر مشكلات ترامب هي ترامب نفسه.